وعليه، فالظاهرة الفدائية التي انتشرت انتشار النار في الهشيم راحت تواجه سياسة رسمية مجافية في الأردن ولبنان، كما أخطاء في صفوفها. وكانت الساحة الأساسية للمقاومة حينذاك خارج الوطن ارتباطاً بنشأتها، وقد انعكست مخاضات مسيرتها في الخارج على مخاضات مسيرتها في الداخل... فكان المخاض عظيما والنزف أعظم.

وبالعودة للمنطلقات، أصبح العمل الفدائي الفلسطيني مصدراً للشرعية السياسية ورمزاً للهوية الوطنية. وحفر الفلسطيني صورته في وسائل الإعلام والرأي العام العالمي بأنه الثائر الملثم الذي يتمنطق بالبندقية، وربما أن لوحة للفنان الفلسطيني اسماعيل شموط هي خير من عكس هذه الصورة.

ثار الشعب على اللجوء والاقتلاع والبؤس والعوز والتهميش وباتت كلمة ثورة واسعة الانتشار، مع تفاوت في فهمها، بين ثورة على «الواقع الفاسد» فتح، وثورة تحمل مضامين تحريرية شاملة (سياسية، طبقية جنسية، ثقافية) الجبهة الشعبية.

أما أسلوب الثورة فهو البندقية والكفاح المسلح، ولاحقا الحرب الشعبية. ورغم التعبئة والحماسة لقوانين ومقولات الحرب الشعبية، بالاستناد للتجربتين الصينية والفيتنامية، كما للتجربتين الجزائرية والكوبية، غير أنه اصطدم بعقبات الظرف الموضوعي. مساحة المعركة ضيقة وغير ملائمة للحرب الشعبية، فلا غابات ولا طبوغرافية عصية، كما أن المستعمرين في الجزائر وفيتنام كانوا أقلية قياسا بالشعب الاصلاني. أما امكانية الانتقال من مرحلة الدفاع السراتيجي إلى مرحلة الهجموم الستراتيجي والتفوق على العدو، فهو متعذر دون حركة تحرر عربية قوية وأنظمة عربية مستعدة للقتال. وفيما ركزت قيادة فتح على العلاقة مع الأنظمة، اجمالا، ركزت قيادة الجبهة على الحركات الشعبية، اجمالا، ولكن ليس للنهاية، وهذا حال الفصائل الأقل وزنا وشعار «هانوي العرب» أو «قاعدة الارتكاز» الذي نظرّت له الجبهة الشعبية لم يتحقق، بل لقد اجتثت الثورة من الأردن، وراحت تواجه استنزافا دائما في لبنان.

مع ذلك أكدت البندقية المقاتلة في سنوات كفاحها الأولى على وجود شعب فلسطين فهو لم (يتحول لغبار الأرض) كما تمنت وثائق الخارجية الإسرائيلية بعد النكبة ودحر محاولات طمس هويته حد الأردنة بين ٤٨ – ١٩٦٧.

أي لقد أكدت البندقية وجوده مثلما أكدت هويته الوطنية، ناهيكم عن أنها أكدت شخصيته